ثورة السود في المدينة سنة 145 هـ /762م

أ.د. سامي جودة الزيدي
مركز ذي قار للدراسات التاريخية / جامعة ذي قار

المقدمة :

لم يتحمل جنس بشري كما تحمل الجنس الاسود من معاناة الحياة ، اذ بيع وسيق وأسر وقتل ومثل به ، ولم يتعامل معه معاملة انسانية على طول التاريخ البشري ، ولم تترك اعمال شاقة وصعبة الا زج بها وتحمل مشاقها وجهدها . وعلى الرغم من ان هذا الجنس تمتع بخشونة عالية وصبر ومجالدة وتحمل المشاق والطاعة لأسياده الذين استغلوه ابشع استغلال ، الا انه على مر التاريخ استطاع ان يسجل لنفسه في سجل التاريخ ملاحم ثورية وانتفاضات تحررية شهد له بها تاريخ الانسانية وعلى مر العصور، اذ لا نجد حضارة الا ونجد للجنس الاسود دورا في صناعتها ، ونجد الى جانب ذلك ثورة تحررية او محاولة للخروج من هيمنة الاستعباد ، ومع ان اغلبها لم تحقق غاياتها الا انها وعلى مر العصور استطاعت ان تبلور هما انسانيا يقف الى جانبها ويدفع باتجاه انصافها . واقدم ما روي عن ثوراتهم احدى القصص اليونانية المتواترة عن حدوث فتنة اندلع لهيبها في مصر الفرعونية واستولى فيها العبيد الثائرين على احدى المديريات .[1] وما روي عن ثوراتهم في اليونان في القرنيين الثالث والثاني قبل الميلاد والتي كانت تقمع بوحشية تنتهي بقتل الثائرين والتمثيل بهم[2].

لم يكن الرق حديث النشأة والظهور ، انما هو ظاهرة موغلة بالقدم ، عرفتها البشرية مذ عرفت الاستغلال وظلم الانسان لأخيه الانسان لا سيما والانسان ميال بطبعه الى الراحة والدعة فلابد له من ايجاد من يقوم بالنيابة عنه في ادارة اموره سيما الشاقة منها والتي اغلبها ظهرت مع تحول الانسان من مرحلة الصيد الى مرحلة الاعتماد على الزراعة . وقد كان الانسان في صراعه البشري فتاك قتال عندما يقع أحد من البشر اسيرا لديه . وبعد ظهور الزراعة شعر الانسان بحاجته الى من يدير شؤونه ويعمل معه في ادارة اعماله لذا ، لجأ الى استعباد الاسرى واستخدامهم في ادارة شؤونه الصعبة . ففي "قصة الحضارة" يرسم ديورانت لوحة البؤس التي مر بها الرقيق من حيث البدايات الاولى لظهوره ، فقد مر الرق في مراحل متعددة على مدى قرون من الزمن ، اذ ابتدأ بقيام المنتصرون في الحروب بقتل اسراهم ، حتى وجدوا انفسهم امام حاجة لاستخدام اولئك في الاعمال الشاقة التي يتهرب الانسان من القيام بها دون خوف ، من هنا بدأت اول الظاهرة ، ومن ثم اخذت بالتدريج تستقر ، وبعد ان ازدادت اهميتها اضيفت لها طوائف اخرى ، كالمَدِينُون الذين عجزوا عن تسديد ديونهم ، والصوص، والمجرمون ممن عاودوا الاجرام ، فضلا عن قيام اصحاب القوة بشن حملات متعمدة بغية جلب الرقيق . ويرى ايضا ان الحروب كانت العامل الاول في نشأة الرق ، ثم اصبح الرق العامل الاهم في شن الحروب[3].لم تكن حضارة من حضارات الارض تخلو من الرق ، ولم يكن دينا من الاديان السماوية او الارضية عمل عمله في تحريمه وتجفيف منابعه ، مع التنبيه الى ان الديانات السماوية جميعها جاءت بمبادئ حقوق الانسان واعطت ضمانات مهمة للحفاظ على تلك الحقوق . ويبدو ان عدم تحريمه له ما يبرره عند اصحاب تلك الديانات، وأيا كانت تلك المبررات فأنها تبقى في دائرة الاستغلال وظلم الانسان لأخيه الانسان . عرفت الجزيرة العربية الرق قبل ظهور الاسلام وكان الرقيق منتشر في الحجاز اذ عرفته مكة، واستخدمته في اعمالها التجارية والحربية . كما عرفته المدينة قبل الاسلام ، ولم يختلف هؤلاء عن غيرهم من العبيد في العالم من حيث المعاملة اذ شكلوا الطبقة الاخيرة في السلم الاجتماعي، وكانت المناطق المجاورة لجزيرة العرب في أفريقيا مصدراً مهماً من مصادر العبيد[4] فبالإضافة الى ما انتجته الحروب من السبي والاستعباد والاسترقاق ، شكلت

التجارة مصدرا من مصادر اثراء المنطقة بالعبيد. وكان في المدينة عدد لابأس به من العبيد الذين كانوا يمتهنون مهن متعددة ، حتى ان الروايات تذكر ان من بين مستقبلي النبي (ص) عند قدومه المدينة مهاجرا قسم من عبيد الحبشة وكانوا يلعبون بحرابهم فرحا بقدومه[5] .

وبمجيئ الاسلام ازداد العبيد كثرة بعد الحروب التي خاضها المسلمون سواء في الجزيرة او خارجها مما ادى الى تدفق اعداد هائلة من العبيد الى المدينة عاصمة المسلمين .فأستخدم قسم منهم في الخدمة في البيوت والقسم الاخر في ادارة الاعمال الزراعية، سيما والتطورات الاقتصادية التي شهدها عصر الخلفاء الراشدين وبروز فئة من اغنياء الحروب سواء كان القادة منهم او اوائل المهاجرين ، وانعكاسات ذلك في قدرتهم على اقتناء العبيد وشراءهم للحاجة الماسة الى استخدامهم في شؤونهم التجارية والزراعية فقد ذكر ان للزبير الف عبد يؤدون اليه الخراج وعند موته ترك ثروة هائلة والف عبد[6]. وكان الموالي والعبيد يزاولون بعض المهن والحرف الوضيعة التي كان العربي يأبى القيام بها من تلك الحرف الحجامة[7]. وكذلك حرفة عمل السيوف وبري النبال[8] وقد اشار النص القرآني الى كثرة العبيد في المدينة وما ألت اليه احوالهم المعاشية محاولا علاجها ورفع مستوى المعاشي للفرد الاسود من خلال التكافل الاجتماعي الذي عرف بنظام الصدقات ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ التوبة / 60. لم تكن ثورة العبيد سنة (145هـ /762م) هي الثورة الاولى ولم تكن الاخيرة ، فقد سبقتها ثورات عديدة وجاءت بعدها ثورات خلدها التاريخ. ولعب الجنس الاسود دورا فاعلا في الكثير منها طيلة العهود الاسلامية . ولعل مشاركتهم في ثورة المدينة ضد يزيد بن معاوية والتي عرفت بواقعة (الحرة) دليلا على فاعليتهم فقد ذكر ان اعدادا كبيرة من العبيد قتلوا في اجتياح المدينة[9].

وشهد العصر الاموي ثورات عديدة اشتركوا فيها السودان بشكل فاعل بل ان البعض منها كانت قياداتها من قبلهم فقد ذكر ابن الاثير ثورة السودان في اواخر ايام مصعب بن الزبير ، فافسدوا، ونهبوا ، فجمع لهم والي البصرة خالد بن عبد الله القسري جيشا ففرقهم واخذ بعضهم فصلبهم[10].

ولما ثار عبد الله بن الجارود على الحجاج خرج الزنج فاجتمع منهم خلق كثير بالفرات ، وولوا عليهم رجلا اسمه (رباح) ويلقب (شير الزنجي) يعني اسد الزنج فافسدوا ، فلما فرغ الحجاج من ابن الجارود امر زياد بن عمرو وكان على شرطة البصرة ان يرسل جيشا يقاتلهم ففعل وارسل جيشا عليه ابنه حفص بن زياد فقاتلهم، فقتلوه وهزموا اصحابه، ثم ارسل اليهم جيشا اخر فهزم الزنج وقتلهم واستقامت البصرة، وكان ذلك عام (75ه/694م)[11] . هذه المحاولات قام بها الزنج السودان قبل ثورة المدينة سنة (145هـ/762م) ويبدو ان الزنج كانوا يتذمرون من معاملة اسيادهم ولذا كانوا يتحينون الفرص للإجهاز على رؤسائهم والخروج على النظام والتمرد، وكان من مظاهر خروجهم الفوضى، اذ تذكر الروايات انهم افسدوا ونهبوا ، والذي يبدو واضحا ان المؤرخين كانوا ينعتون كل خروج على السلطة على انه افساد وليس اصلاح، لذا اطلقوا على اغلب الثورات التحررية والاصلاحية صفة الفساد والنهب . كما ان ثورة السودان في المدينة تلتها ثورات اخرى ففي عهد سوار بن عبد الله العنبري[12] خرج في البصرة عبيد سودان، يقال انهم كانوا أربعين، او اكثر، فاستشار في امرهم، فقائل يقول: اقتلهم ، وقائل يقول: عبيد اضّر بهم الجوع والضر، وان تركوا تفرقوا ، وقائل يقول: وجه اليهم من يفرقهم من الجند، فوجه السري بن حصين الباهلي، فلقيهم عند نهر سليمان في البصرة ، فقتل منهم اربعة عشر عبدا، ويقال عشرة، ويقال سبعة عشر، ويقال اقل، فأعطى مواليهم اثمانهم، وبعث برؤوسهم الى المنصور، ويقال انه كان يتصدق كل سنة من ماله بمثل اثمانهم، وقال له السري بن الحصين: ما بالك اعظمت قتل هؤلاء؟ والله لو لم تقتلهم لقتلوك، ثم تفرق من بقي منهم فلم يعرض لهم [13] . الواضح ان هذه الثورة كانت لها مبرراتها، ولعل الجوع والضّر

احدى اهم الاسباب التي دفعت اولئك العبيد للخروج على السلطة في البصرة ، والمعاملة السيئة التي كان يعامل بها العبيد، والاعمال الشاقة في تلك المنطقة، التي شهدت خروج ثورات للعبيد متكررة . كما ان الثورة شكلت خطرا كبيرا على السلطة مما يدعو الى الاعتقاد ان العدد الثائر كان اكبر مما ذكره المؤرخون ، وهذا واضح من خلال القوة التي ارسلها سوار لقتالهم وتفرقتهم، ثم قول السري بن الحصين لسوار (والله لو لم تقتلهم لقتلوك) وهذا يدلل على عظم قوتهم واصرارهم على الثورة فلو تُركوا ولم يُقاتَلوا لأسقطوا السلطة في البصرة ولأزداد نفوذهم وقوتهم.

ومن ابرز الثورات التي تلت ثورة المدينة ثورة الزنج عام (255هـ / 868 م) المجلوبون من افريقيا والتي تزعمها رجل يدعى علي بن محمد، استطاع ان يجمع الزنوج العاملين في سباخ البصرة، واخذ يذكرهم بسوء ما يلقون من معاملة ويحرضهم على الثورة معهم ويعدهم بالتحرير من الرق والثورة، وقد استطاع بما يملكه من مهارات التأثير ان يستميلهم الى جانبه، فاعلن ثورته وحقق بها انتصارات فاقت التصورات، وعلى الرغم من محاولات السلطة القضاء على ثورته الا ان تلك المحاولات العديدة باءت بالفشل، واستمر الزنج في سيطرتهم على البصرة وما حولها حتى عام (270ه/883م) اذ كانت المعركة الحاسمة، والتي قتل فيها صاحب الزنج وتم القضاء على ثورته التي استمرت اربع عشر سنة وقتل فيها مئات الالاف من المسلمين [14] .

لا نريد ان ندخل في تفاصيل الثورة وتحليلاتها لأنها خارج اطار دراستنا ، انما اردنا ان نشير الى حقيقة ثورات الزنوج في الدولة العربية الاسلامية ، ومدى ما وصلت اليه معاناتهم ومحاولاتهم التي دفعوا جراءها اثمانا باهظة من حياتهم املا في نيل الحرية وتحسين واوضاعهم المعيشية، وتحسين المعاملة اتجاههم .

اوضاع المدينة قبل الثورة .

شهدت المدينة حالها في ذلك حال بقية مدن الخلافة تعسفا واضطهادا على مر عصور الخلافة فمنذ عهد معاوية وما جرى عليها من فقر ومجاعة ومحاصرة ، فقد فرض معاوية على اهل المدينة عقوبة قطع العطاء عن اهل المدينة حتى شاع الفقر فيها [15] . وقد اتبع معاوية سياسة التجويع كعقوبة مشددة على الولايات التي عرفت بقلة الطاعة للأمويين ، واستمرت سياسة الامويين على النهج نفسه الذي انتهجه معاوية. لم تكن سياسة العباسيين اقل شأنا في اتباع الاسلوب نفسه، فعندما نطالع الواقع الذي عاشته المدينة ايام المنصور يتبين مدى الضغط الذي تعرض له اهلها فقد ولى المنصور عليهم رباح بن عثمان المري، الذي استقبل المدينة بخطبته المشهورة: (يا اهل المدينة انا الافعى ابن الافعى ابن عثمان بن حيان وابن عم مسلم بن عقبة المبيد خضراكم ، المغني رجالكم ، والله لأدعها بلقعا لا ينبح فيها كلب) [16]. لقد كان الخليفة ابو جعفر المنصور يقطع العطاء على اهل مكة والمدينة ، ويبدو ان الاسباب التي دعته الى ذلك تأييد اهل المدينة لثورة محمد بن عبد الله (النفس الزكية) فاراد عقوبتهم فقطع عنهم العطاء، تجويعا واذلالا ولم يرد عليهم عطائهم الا بطلب من الامام الصادق (ع) [17]. تركت ثورة محمد (النفس الزكية) اثار كبيرة على اهل المدينة للسياسات التي اتبعها الولاة مع الناس فقد كان الخوف والخشية من التمرد على السلطة يحفر اثرة في ذاكرة سكانها لذا لم يجرئ احد من اهلها الرد على سياسة الولاة الجائرة بحقهم لذا دفع هذا الامر السودان في المدينة للقيام بهذه المهمة ، كما سنرى .

احداث ثورة السود (145 هـ / 762 م) .

استعمل الخليفة المنصور على المدينة عبد الله بن الربيع [18] وكان معظم جنود ابن الربيع من الخراسانيين الذين شاركوا في مقاومة العديد من الفتن في اطراف العراق، وكانت اجواء الاضطرابات قد اثرت في سلوكهم وجعلتهم يعاملون الناس بخشونة واستعلاء فتضايق اهل المدينة من افعالهم ولكنهم صبروا عليهم .[19] وازدادت افعال الجند سوءً مع الاهالي وخصوصا مع التجار في بعض ما يشترونه منهم، اذ انهم كانوا يمتنعون عن دفع ثمن البضائع ، هذا الامر دفع التجار الى تقديم شكاوى مستمرة الى الوالي عبد الله بن الربيع، ولكن الوالي ذو الطبع الجاف انتهر التجار وشتمهم مما اعطى الذريعة للجنود في الاساءة الى التجار واصحاب المهن، فعدى بعض الجند على رجل صيرفي فنازعوه كيسه فاستعان بالناس فخلص حاله منهم فعادوا الى الوالي واشتكوا فعل الجند ، الا انه لم ينكر على الجند فعلهم ولم يحاسب عليه . فدفع احد الجنود الى التمادي في فعله ، اذ اشترى من جزار لحما يوم جمعة ولم يعطه ثمنه ، وشهر عليه السيف فاخذ الجزار شفرته الحادة فطعن الجندي في خاصرته فقتله واجتمع الجزارين وتنادى السودان على الجند وهم يروحون الى الجمعة [20].

هذه كانت الشرارة التي اشعلت فتيل الثورة ضد السلطة في المدينة، ويبدو ان اضطهاد الجنود وتعسفهم كان منصبا بالأساس على اصحاب المهن من الموالي والسودان، وكانت معاملتهم معهم اسوء المعاملات حتى انهم كانوا لا يدفعون لهم اثمان السلع التي يشترونها ، ولم يكن الوالي يعبأ بتصرفات جنوده رغم الشكاوى المستمرة حتى لم يحاول تهدئة خواطر الناس بطريقة ما بل لجأ الى سب وشتم المتذمرين لأفعال الجند. والواضح ان تذمر السودان من هذه الافعال وصل حده وكان ينتظر ساعة الصفر التي تشعل المواجهة بينهم وبين الجند وهذا ما تؤكده الروايات، انهم اتفقوا على اشارة البدء، فقد قام احد السودان بعد قتل الجندي المعتدي على الجزار بالصعود على تل عالي بقرب السوق ونفخ في بوق لهم فسمعه السودان من العالية والسافلة فاقبلوا واجتمعوا [21]. بعد ان اجتمع السودان في السوق بدأوا بتشكيل قياداتهم الثورية فيذكر الطبري ان قادتهم كانوا ثلاثة نفر : وثيق ويعقل ورمقة [22]. يضيف ابن كثير لهم اخرين اذ يقول: (وكان رؤوس السودان وثيق ويعقل ورقعة وحديا وعنقود ، ومسعر ، وابو النار) [23]. وأيا كان فالتنظيم الدقيق الذي جعل هذه الثورة تنطلق يوضح انها لم تتفجر عفويا بل كان مخططا لها من قبل ، وان ما حدث للجندي كان فقط الشرارة التي اشعلت فتيل الازمة . هكذا تشكلت فرق الثورة وتصايح السود وتوزعوا على شكل فرق يقودهم احد القادة واخذوا يلتقطون ما يجدونه من العمد والعصي ، وهم في طريقهم الى التفتيش عن الجنود ، ومن وجدوه انهالوا علية بالضرب حتى يقتلوه. وهنا اخذ الجنود الفارين من يدي الثوار في فزع وهلع اللجوء الى دار الامارة واخبار الوالي بالأخبار فقرر الوالي الذهاب الى السوق لتأديب المتمردين على سلطته قبل الذهاب الى صلاة الجمعة. وفي طريقه صادف خمسة من السودان يسألون الصدقة، فحمل الجند عليهم وقتلوهم، وفي طريقه ايضا مرَ ببعض الصبية من السودان يلعبون امام احدى الدور، فظن انهم من الثوار فخدعهم حتى ضرب اعناقهم [24].هذا يدلل على ان الثورة كانت ثورة السود وحدهم اذ ان الوالي كان يقتل كل اسود صادفه في طريقه ، كما ان الثورة اقتصرت على السودان دون غيرهم من فئات المجتمع ، ثم ان قادة الثورة كانوا من السودان ولم يشترك في قيادتها من مجتمع المدينة غيرهم .

استطاع السود بما امتلكوه من حماسة وعزيمة وصبر على مواجهة الوالي وجنوده عند دكاكين السوق، ولم يستطع الوالي بما لديه من امكانيات عسكرية من الصمود بوجه الثوار اذ اخذ يتراجع حتى وصل البقيع وخشي الامير الوصول اليه فيقتلوه ، فاخذ صرة من الدراهم ونثرها ، واقبل السودان عليها يلتقطون الدراهم المنثورة ، مما ساعد ذلك على هروب ابن الربيع وجنوده حتى نزل ببطن نخل

[25]. لقد كان الوالي يدرك ما يعانيه السود من سوء الاحوال الاقتصادية ، لذا لجأ الى نثر الدراهم عليهم لكي يشغلهم عن مطاردته، كما ان السود كانوا يعانون من سوء الاحوال المعاشية، اذ ان احدهم لا يملك ما يستر به عورته فقد ذكر(ان الفارس ليلتقي الاسود وما عليه الا خرقتان على عورته ودراعة ، فيوليه دبره احتقارا له)[26]. ثم ان الثوار بما حملوه من تذمر نفسي نتيجة لما يعانوه من شغف العيش دفعهم الى الهجوم على دار الولاية وانتهاب ما فيها من مؤن العسكر وباعوه بأثمان بخسة [27]. ويذكر ابن الاثير انهم انتهبوا طعاما للخليفة المنصور وزيتا وقصبا فباعوا الدقيق بدرهمين ورواية الزيت بأربعة دراهم [28].هذا يجعلنا امام عامل من عوامل نشوب الثورة وهو الفقر والتجويع الذي عانى منه اولئك العبيد وقد مثلت السلطة ورموزها في اعينهم السبب الحقيقي لما هم فيه من وضع اليم[29] ، وهو ما عبر عنه احد زعماءهم وهو وثيق بقوله لأسياده : (دعونا نشتفكم ونشتف انفسنا) [30].

تطورات الثورة :

بعد هروب ابن الربيع وغياب السلطة ولجوء العبيد الى النهب ، تحولت المدينة الى فوضى ، ولم يتوقف نشاط الثورة عند هذا الحد اذ هجموا على سجن المدينة واخرجوا ما كان فيه. واخذ السودان يتجولون في المدينة منتشين مسرورين بما فعلوه، وهم يمارسون حريتهم ويبيعون ما غنموه من اكداس الطعام. وبدت المدينة بلا سلطة تدير امورها . وانقسمت الآراء في المدينة بين مغتبطا بالثورة وبين متخوفا من عواقبها ، اذ لا زالت اثار ثورة محمد بن عبد الله (النفس الزكية) ماثلة في اذهانهم ، وازداد خوف بعضهم واشتدت الخشية عندما علموا ان احد رجال السلطة في المدينة خرج بالخبر الى المنصور فاخبره [31].

ابن ابي سبرة ودوره في اطفاء الثورة :

هو عبد الله بن محمد بن ابي سبرة ، القريشي ، وابو سبرة ابوه كان صحابيا ، شهد مع النبي (ص) بدرا ، ولما خرج محمد بن عبد الله (النفس الزكية) قدم عليه ابن ابي سبرة بأربعة وعشرون الف دينار دفعها اليه ، فكانت قوة لمحمد ، فلما قتل (النفس الزكية) بالمدينة اخذه عيسى بن موسى وحبسه في حبس المدينة ، وظل فيها حتى ثار السودان فأخرجوه منها [32].ارادوا كسر قيوده لكن ابى ذلك ، وامرهم بالطاعة والعدول عن الثورة . ولعل الخوف من السلطة وجبروتها مثل خطاب ابن ابي سبرة الذي كان على دراية تامة ولديه القدرة على قراءة المشهد القادم للمدينة جراء ما حدث فيها من خروج على السلطة فقد اصطلح على ذلك (بالبلية التي وقعت) [33].حذر ابن ابي سبرة اهل المدينة مغبة الثورة ، وما سوف تؤول اليه اوضاع المدينة لو ان الخبر وصل الى الخليفة ابو جعفر المنصور فقد عبر عنه بقوله:(انه لاصطلام البلد باهله) [34] لذا طلب من رؤساء المدينة ابناء المهاجرين والانصار محادثة العبيد لأنهاء التمرد وارجاعهم الى وضعهم ، ومع وجود القيادة للثورة ، الا ان ابن ابي سبرة ، كان لا يعتقد بها ثورة بمعناها المنظم اذ اكد للمجتمعين (فانهم لا نظام لهم)([35]) اي انها تفتقر الى قيادة منظمة تقود الثورة وتنظم امورها. والبين اننا لو طالعنا مجريات الثورة لوجدنا ان لها قيادة كانت تدرك ما تفعل ، ولعل لها هدف تريد الوصول اليه ، فقد ذكر الطبري ، ان احد رؤساء المدينة سال قائدها وثيق ، الى من تعهد يا وثيق ؟ قال: الى اربعة من بني هاشم واربعة من قريش ، واربعة من الانصار ، واربعة من الموالي ، ثم الامر شورى بينهم ، قال اسال الله ان ولاك شيئا من امرنا ان يرزقنا عدلك ، قال: قد والله ولا نيه الله [36]. وهذا يدل على ان قائد الثورة كان يخطط لأنشاء سلطة في المدينة وانه يسعى الى الخروج على السلطة المركزية ويأسس لنظام جديد قائم على الانتخابات والشورى . لكن خشية ابن ابي سبرة وتجربته السابقة في ثورة محمد بن عبد الله ، جعلته يسعى الى

اخماد الثورة بطريقة سلمية وايجاد حلول تفاهميه بين الاطراف ، ليجنب المدينة غضب السلطان، سيما وقد رأت المدينة من السلطة على مر تأريخ الدولة الاسلامية الكثير من الويلات والمحن، فقد ابيحت زمن يزيد بن معاوية [37] لثلاثة ايام [38]، وتعرضت لحصار اقتصادي زمن الخليفة معاوية بن ابي سفيان (اذ حبس عنهم العطاء لسنتين او ثلاث)[39] حتى ان الرجل منهم لم يتمكن من شراء راحلة يستعين بها على اموره [40] كما ان الدولة لم تكف عن ارسال العيون والجواسيس لنقل اخبارها ، وما كان يدور فيها من خطط تدعو الى الثورة ونقض البيعة للخلفاء، كونها موطن الصحابة ودار هجرة النبي(ص) . لذا اخذ يشرح الوضع للمجتمعين ويؤكد لهم ان الثورة لا تحمل اهداف واضحة ومحددة وانما هي تمرد لا أكثر مدفوعة بالحمية والتذمر، فقد قال : (ولم يقوموا بدعوة ، وانما هم قوم اخرجتهم الحمية)[41] . اقتنع المجتمعون بحديث ابن ابي سبرة ، وقرروا ان ينقسموا فئتان لإصلاح الوضع في المدينة وتدارك الامر قبل ان يخرج عن السيطرة لذا قرر قسم منهم الذهاب الى السوق والحديث مع العبيد الثوار واقناعهم بالعدول عن ثورتهم وتحذيرهم مغبة الفعل. والقسم الاخر يتوجه للقاء ابن الربيع ومحاولة اقناعه بالعودة الى المدينة . التقى القسم الاول من فريق التفاوض مع العبيد في السوق الذي شكل مقر قيادتهم وادارتهم لأمور الثورة ، فكلموهم بالعدول عن الثورة ، واستجابة نفوس الثائرين لمواليهم وقالوا (مرحبا بكم يا موالينا ، والله ما قمنا الا انفة لكم مما عمل بكم، فأيدينا مع ايديكم وامرنا اليكم) .[42] ثم اقبلوا بهم الى المسجد واستطاع القسم الاول من انهاء مهمته بسهولة حينما استجاب الثوار السودان الى مطاليب مواليهم وعادوا عن ثورتهم واتجهوا صوب المسجد لإعلان انهاء الثورة والركون الى الهدوء والطاعة . لم تغادر ذكره اهل المدينة ما تعرضوا له من مآسي على أيدي السلطة طيلة فترة الحكم الاموي والعباسي ، لذا كان الخشية من بطش السلطة امرا معقولا ، فعندما وصل الوفد الى المسجد ومعهم قادة السودان وحضرت صلاة العشاء ، قال المؤذن من يصلي لكم ؟ فلم يجبه احد فقال الا تسمعون فلم يجيبوه . فقام رجل اموي من ولد مروان يدعى الاصبغ بن سفيان بن عاصم بن عبد العزيز بن مروان قال انا اصلي بالناس على طاعة ابي جعفر ، وردد ذلك ثلاثا ثم كبر [43] . الواضح ان خوف الناس في المدينة دفعهم الى عدم التقدم للصلاة سيما وان الامامة هي احدى مظاهر الامارة ، لذا نجد الاصبغ بن سفيان الذي تقدم الصفوف يكرر قبل الصلاة انه على طاعة المنصور ، لإسماع الناس انه ليس من اصحاب الثورة او الخارجين على السلطة ، فهو ما زال في دائرتها ونفوذها وهذا يدلل على مدى سطوة الحاكم وجبروته ، وخوف الناس من بطشه ، حتى في اقامة الصلاة في المناطق الخارجة عن السيطرة . اما القسم الاخر من وجوه اهل المدينة فقد توجهوا للقاء ابن الربيع في بطن نخل المكان الذي كان يقيم فيه بعد هروبه من المدينة . وكان جل رجال الوفد من قريش ، فوجدوه غاضبا من فعل الثورة فكلموه فأبى الرجوع الى المدينة ، فخلى به رجال من قريش وكلموه وحذروه من مواصلة طريقه واكدوا له طاعة المدينة ، وعودتها الى ما كانت عليه كما حدثوه عن دور ابن ابي سبرة في اقناع الثوار عن العدول عن ثورتهم والركون الى الطاعة مما ادى الى تغيير مجرى الاحداث واقنعوه بعد تمنع بالعودة الى المدينة . وافق ابن ابي الربيع وعاد معهم بجنده [44].لم ينته دور ابن ابي سبرة عند هذا الحد ، انما استمر في اصلاح الوضع ومحو اثار ما حدث لذا حث اهل المدينة على اصلاح ما افسدته الثورة وارجاع ما اخذ من متاع الجنود وما سرق من اموال ، وقد عين لذلك مقرا خاصا لاسترجاع المنهوبات وعين عليه شخصا يدعى عبد الله بن المغيرة بن وهب واستجاب عدد كبير من السودان وارجعوا ما نهبوه من امتعة واموال، فقد استرجع ما قيمته الف دينار[45].عاد بعدها ابن ابي سبرة الى السجن الى ان جاء امر المنصور فيه ، فقد اكرمه بإطلاق سراحه وعين قاضيا في بغداد [46].انتهت ثورة المدينة بعد عودة ابن الربيع ، وقد امسك بقادة الثورة من السودان واجرى عليهم عقوبة قطع اليد وهم وثيق وابي النار ويعقل ومسعر

(47). اغلب الظن ان ابن الربيع اراد ان يحول الثورة التي قامت ضده في المدينة الى مجرد عصابة قامت بالسرقة وتم القبض عليهم واجري بحقهم عقوبة السرقة . واسدل الستار على ثورة اطاحت بالسلطة العباسية المتمثلة بوالي المدينة واكد على دور السودان كفئة اجتماعية حاضرة في الوجود المجتمعي لعناصر المدينة المختلفة. كما ان الثورة لم تكن ثورة ضد الاسياد ولم يطلب الثوار بالتحرر من طاعة اسيادهم ، اذ ان العنصرية لم تكن حاضرة في اهدافها ، بل هي ثورة ضد السلطة وتعسفها ، ولعلهم ادركوا ان السلطة هي المسؤولة عن سوء اوضاعهم ، وقد اثبت السودان في ثورتهم انهم جزء من المجتمع الحي الذي يتحسس المعاناة ويلتهب حماسه للتغير ، وهو عنصر فاعل في صناعة وبناء الحياة في المدينة ، وهذا ما اثبتته نتائج الثورة . اذ تعلم ابن الربيع فيها درسا بليغا في كبح جنوده ، وتصرفاتهم فلم تشهد المدينة تجاوزا من جنوده على احد اهلها . كما انها نبهت المنصور الى ضرورة استبدال عامله عن المدينة ، فقد عين عليها ابن عمه سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس سنة (146 هـ) اي بعد شهرين من اندلاع الثورة ، وقام سليمان باستبدال جنود ابن الربيع بغيرهم (48).

وهكذا عادت المدينة لوضعها واستعادت الامن والاستقرار وهدئت النفوس وعاد الناس لمزاولة اعمالهم .

الخاتمة:

اظهر البحث جملة من الامور ممكن اجمالها بالنقاط التالية :

1 ـ ان الجنس الاسود وعلى مر التاريخ وفي مختلف الحضارات عانى الاضطهاد والحرمان والتعسف وطبقت بحقه سياسة التجويع والتفقير وسلب الحرية والارادة .

2 ـ كان مسلوب الهوية يباع ويشترى حاله في ذلك حال الممتلكات الاخرى لم يعامل بإنسانية ولم تراعى له حرمة الانسان .

3 ـ محاولة اظهار ما اغفلته المؤلفات العربية من دور الفئات الاجتماعية ولاسيما السودان منها في الثورات التحررية ، اذ ان الغالب عليها التركيز على الملوك والقادة ونسب كل المنجزات الحضارية والعمرانية والانتصارات اليهم ، دون التطرق الى دور الفئات الاجتماعية في بناء الحضارة وهذا يدلل بوضوح على ان التاريخ كتب اغلبه بأيادي المقربين الى السلطة ، كما ان الغالبية من تلك المؤلفات كانت ـ وبلا تهاون ـ تكيل التهم الى كل المحاولات الثورية الساعية الى تغيير الاوضاع الاجتماعية السيئة التي كان يعيشها المجتمع الاسلامي .

4 ـ التركيز على دور السودان في المشاركة الفاعلة في الثورات التحررية ، والتأكيد على محاولاتهم المستمرة طيلة فترة الخلافة الاسلامية من خوض تجربة الكفاح ضد السلطة على الرغم من تسلطها وجبروتها الممقوتين .

5 ـ دراسة وتحليل ثورة السودان سنة (145هـ/762م) في المدينة والتي اهملتها كتب التاريخ ولم تشر لها سوى كتب التراجم في اشارات عابرة عند ترجمة ابن ابي سبرة على الرغم من ان الطبري ذكرها في حوادث سنة (145هـ/762م) ، مع انها كانت ثورة اسقطت السلطة في المدينة ، واخذت ترمي الى تأسيس نظام قائم على اساس مبدأ الشورى في الحكم .

6 ـ اثبتت الدراسة ان السلطة ومهما كانت قوتها لا تستطيع ان تمنع المجتمع من ان يقول كلمته، وان كانت الفئة المستضعفة منه والاكثر حرمانا وصاحبة الدرجة الاخيرة في سلمه الاجتماعي.

الهوامش:

[1] ديورانيت ، قصة الحضارة ، ج2 ، ص87 .
[2] ـ الترمانيني ، الرق ماضيه وحاضره ، ص67 .
[3] ـ ديوارنت ، قصة الحضارة ، ج1 ، ص356 .
[4] ـ زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ج4 ، ص20 .
[5] ـ عبد الرزاق ، المصنف ، ج10 ، ص466 ؛ النسائي ، السنن الكبرى ، ج7، ص92 .
[6] ـ المسعودي ، مروج الذهب ، ج2 ، ص485 ، المناوي فيض القدير ، ج4 ، ص358 .
[7] ـ ابن سعد ، الطبقات ، ج1،ص444 .
[8] ـ ابن حجر ، الاصابة ، ج3 ،ص649
[9] ـ ابن اعثم ، كتاب الفتوح ، ج5 ، ص 160 .
[10] ـ الكامل ، ج4 ، ص388 .
[11] ـ المصدر نفسه ، ج4 ، ص388 .
[12] ـ سوار بن عبد الله بن قدامة العنبري من اهل البصرة كان فقيها مات سنة (156هـ) وهو يومئذ امير على البصرة وقاضيا وكان قد ولاه ابو جعفر المنصور القضاء سنة (138هـ) وبقي على القضاء الى ان مات . الذهبي ، تاريخ الاسلام ، ج9 ، ص414 .
[13] ـ البلاذري ، انساب الاشراف ، تحق د . سهيل زكار ود .رياض زركلي ، دار الفكر (بيروت 1417 هـ / 1994 م) ، ج4 ، ص350 .
[14] ـ ابن الاثير ، الكامل ، ج7 ، ص205 ، ص209 ، ص210 ، ص211 ، ص214 ، ص237 ، ص246 ، 260 ، ص367 ، ص429 .
[15] ـ ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج1 ، ص228 .
[16] ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ج2 ، ص262 .
[17] ـ المزي ، تهذيب الكمال ، ج5 ، ص95 .
[18] ـ عبد الله بن الربيع الحارثي ولاه المنصور المدينة سنة 145هـ بعد عزل كثير بن الحصين عنها والذي كان قد ولاه عيسى بن موسى
بعد القضاء على ثورة محمد النفس الزكية وظل فيها حتى عزله المنصور عنها سنة 146 هـ . خليفة ابن خياط ، تاريخ خليفة ،
ص340 .
[19] ـ بدر ، التاريخ الشامل للمدينة المنورة ، ج2 ، ص50 .
[20] ـ الطبري ، تاريخ ، ج7 ، ص609 ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج5 ، ص164 .
[21] ـ الطبري ، ج7 ، ص610 ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج5 ، ص165 .
[22] ـ الطبري ، تاريخ ، ج7 ، ص610 .
[23] ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ، ص97 .
[24] ـ الطبري ، تاريخ ، ج7 ، ص610-611 .
[25] ـ الطبري ، ج7 ، ص611 .
[26] ـ الطبري ، تاريخ ، ج7 ، ص611 .
[27] ـ الطبري ، ج7 ، ص611 .
[28] ـ ابن الاثير ، الكامل ، ج5 ، ص145 .
[29] ـ التواتي ، التعبير الديني ، ص145 .
[30] ـ الطبري ، تاريخ ، ج7 ، ص612 .
[31] ـ الطبري ، تاريخ ، ج7 ، ص611 .
[32] ـ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج14 ، ص370-371 ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، ج10 ، ص535-538 .
[33] ـ الطبري ، تاريخ ، ج7 ، ص612 .
[34] ـ الطبري ، المصدر نفسه ، ج7 ، ص612 .

[35] الطبري، تاريخ، ج7، ص612 .
[36] ـ الطبري ، ج7 ، ص612 .
[37] ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج2 ، ص15 ؛المسعودي ، مروج الذهب ، ج3 ، ص81 .
[38] موقعة الحرة التي حدثت سنة (63هـ) بعد خروج اهل المدينة على يزيد ، لانه اسرف في المعاصي ، اذ خلعوا بيعته ، فارسل اليهم جيشا ، ذكره الحسن البصري فقال (والله ما كاد ينجو احد ، نهبت المدينة ، وقتل اهلها ، وافتض فيها الف عذراء . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ،ص209 .
[39] الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج1 ،ص 187.
[40] البلاذري ، انساب الاشراف ، ج5 ، ص123 .
[41] الطبري، تاريخ، ج7، ص612 .
[42] ـ المصدر نفسه ، ج7 ، ص612 .
[43] ـ ابن الاثير ، الكامل ، ج5 ، ص145 .
[44] ـ الطبري ، ج7 ، ص614 .
[45] ـ الطبري ، تاريخ ، ج7 ، ص613 .
[46] ـ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج14 ، ص371 .
[47] ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ، ص97 .
[48] ـ الطبري ، ج7 ، ص656 ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج5 ، ص22 .

المصادر والمراجع :

1 ـ ابن الاثير، عز الدين بن الحسن (ت 630هـ) الكامل في التأريخ ، دار الكتب العلمية (بيروت ، د .ت) .
2 ـ ابن أعثم الكوفي ، ابو محمد احمد (ت 314هـ) كتاب الفتوح ، تحق علي شيري ، دار الاضواء (بيروت 1411هـ) .
3 ـ بدر ، د . عبد الباسط ، التاريخ الشامل للمدينة المنورة (المدينة المنورة ، 1414هـ / 1993م) .
4 ، البلاذري ، احمد بن يحيى (ت279 هـ) انساب الاشراف ، تحق سهيل زكار ، دار الفكر (بيروت 1417هـ / 1996م)
5 ـ الترماني ، عبد السلام ، الرق ماضيه وحاضره ، عالم المعرفة (الكويت ، 1979م) .
6 ـ التواتي ، مصطفى ، التعبير الديني عن الصراع الاجتماعي في الاسلام ، دار الفارابي (بيروت ، 2007م) ط2 .
7 ـ ابن حجر ، ابو الفضل احمد العسقلاني (ت 852هـ) الاصابة في تميز الصحابة ، دار الكتب العلمية (بيروت1415هـ / 1995م)
8 ـالخطيب البغدادي ، ابو بكر احمد البغدادي (ت463هـ) تاريخ بغداد ، دار الكتب العلمية (بيروت ،1417هـ / 1997م)
9ـ ابن خياط ، خليفة العصفري (ت 24هـ) تاريخ ابن خياط ، دار الفكر (بيروت ، د . ت).
10 ـ الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد (ت748هـ) تاريخ الاسلام ، دار المعرفة (بيروت 1407هـ/1987م) .
11 ـ زيدان ، جرجي ، تاريخ التمدن الاسلامي (بيروت ، د . ت) .
12 ـ ابن سعد ، محمد بن منيع (230هـ) الطبقات الكبرى ، دار صادر (بيروت ، د .ت).

13- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ) تاريخ الخلفاء ، تحق محمد محي الدين عبد الحميد ،
مطبعة السعادة (مصر،137هـ/1952م) .
14 ـ الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ) تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف (مصر ،د.ت) ط2 .
15 ـ عبد الرزاق ، ابو بكر بن همام الصنعاني (ت 211هـ) المصنف (بيروت ، د .ت) .
16 ـ ابن قتيبة ، ابو محمد بن مسلم الدينوري (ت 276هـ) الامامة والسياسة ، تحق علي شيري (قم 1413هـ) .
17 ـ ابن كثير ، ابو الفداء اسماعيل (ت774هـ) البداية والنهاية ،دار التراث العربي (بيروت ، 1908م) .
18 ـ المزي ، جمال الدين ابي الحجاج (ت742هـ) تهذيب الكمال ، مؤسسة الرسالة (بيروت 1406هـ/1985م).
19 ـ المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين(ت346هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مؤسسة الأعلمي(بيروت ، 1421هـ / 2000م) .
20 ـ المناوي ، محمد عبد الرؤوف (1013هـ) فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الكتب العلمية (بيروت 1415هـ/ 1994م)
21- النسائي ، ابو عبد الرحمن احمد بن شعبث (ت303هـ) السنن الكبرى ، دار الكتب العلمية(بيروت 1411هـ/1991م) .
22 ـ ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة زكي نجيب محمود ومحمد بدران ، طبعة الهيئة المصرية (مصر ، د.ت).
23 ـ اليعقوبي ، احمد بن اسحاق بن جعفر(292هـ) تاريخ اليعقوبي ،دار الاعتصام (ايران 1425هـ) .